ليلة العَقَبَــة

المكان: العقبة. حيث يحتشد الناس اليوم ثلاثة أيام أو أربعة يرون الحصى .. الجَمَرات ...

والزمان: ليل!

ليلة من تلك الليالي الناعسة الكسول الحالمة على رمال الصحراء ..

رمال تافهة .. هباء .. كل حبةٍ فيها ذرّة عَدَم!

وأناس يتسلَّلون .. تسلُّل القط .. مُستَخْفين ..

خمسة وسبعون .. ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ..

حتى اجتمعوا في الشِّعب عند العقبة ..

وقعدوا ينتظرون!

همسات أنفاسهم تطّغى على صوت الصمت .. ولكنها مع ذلك لم تستطع إيقاظ ذلك الليل الحالم الكسلان .. ولا الرمال التافهة الهباء.

منذ عام مضى، أيقظ الليلَ والرملَ منهم اثنا عشر يُبايعون:

لا نشرك بالله شيئاً .. ولا نسرق .. ولا نزني .. ولا نقتل أولادنا .. ولا نأتي ببهتان نفتريه .. بين أيدينا وأرجلنا .. ولا نعصيك في معروف ..

وكان جواب:

إن وفيتم فلكم الجنة!

وإن غَشِيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عزّ وجل: إن شاء غَفَر، وإن شاء عذّب!

ثم نام الرمل ونام الليل .. ولكن أولئك النفر كان لهم شأنٌ آخر ..

كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون!

وعادوا بعد اثني عشر شهراً .. خمسة وسبعين .. يحاولون إيقاظ الليل من جديد .. والرمل .. فيكادان يأبيان ..

يتمطّى الليل .. ويتمطّى الرمل .. ويقعد القوم ينتظرون ..

ويطل من الشِّعب رجلان:

قال أحدهما – وقد جلس بعد أن قام لهما القوم -: « يا معشر الخزرج! وكان العباسَ بن عبد المطلب ..

وكان القوم من يثرب .. والعرب تسمي هذا الحي من الأنصار الخزرج: خَزْرَجَها وأَوْسها ..

«إنّ محمداً منّا حيث قد علمتم! واصل العباس كلامه ..

«وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ..

«وإنه قد أبَى إلا الانحياز إليكم واللُّحوق بكم!

« فإن كنتم ترون إنكم وافون له بما دعوتموه إليه .. وما نعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك !

«وإن كنتم تَرَون أنكم مُسْلِموه وخاذِلوه بعد الخروج به إليكم، فمِنَ الآن فَدَعوه ! فإنه في عزّ ومَنَعة من قومه وبلده !

- «قد سمعنا ما قلت ! أجاب الخمسة والسبعون

فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت!
وتكلم رسول الله ..

فتلا القرآن .. ودعا إلى الله .. ورغّب في الإسلام ..

ثم بايعهم رسول الله ..

«أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون مه نساءكم وأبناءكم .. »

وبايعوه:

أخذ البَرَاء بن معرور بيده .. والبَرَاء سيّد القوم وكبيرهم:

«نعم!

« والذي بعثك بالحق لنمنعنّك مما نمنع منه أُزُرَنا .. فبايعنا يا رسول الله ..

فنحن والله أهل الحروب .. وأهل الحَلْقة ورثناها كابراً عن كابر ..

واعترض القولَ – والبراء يكلم رسول الله – أبو الهيثم بن التَّيْهان:

«... يا رسول الله!

إن بيننا وبين الرجال حِبالاً، وإنّا قاطعوها (يعني اليهود ..

فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أَظْهَرَك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعنا؟»

«- بل الدّم الدّم، والهدم الهدم .. قال رسول الله بعد أن تبسّم

«أنا منكم وأنتم منّي .. أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم!»

واعترض القول العباس بن عُبَادة: يا معشر الخزرج!

«هل تدرون عَلامَ تبايعون هذا الرجل؟

- نعم! قالوا:
- إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس! فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهَكت أموالَكم مصيبةً وأشرافكم قتل أسلتموه .. فمن الآن! فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة!

وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف .. فخذوه! فهو والله خير الدنيا والآخرة!

قالوا:

«فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف!

- فمالنا بذلك يا رسول الله إن نحن وَفَينا؟

- «الجنّة! قال رسول الله .. قالوا:

- «ابسط يدك .. فبسط يده .. فبايعوه!

بيعة الحرب ..

«على السمع والطاعة في عُسرنا ويُسرنا .. ومَنْشَطنا ومَكْرَهنا .. وأَثَرةٍ علينا .. وألا ننازع الأمر أهله .. وأن نقول بالحق أينما كنّا: لا نخاف في الله لومة لائم!

وقال رسول الله:

«أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم»

فأخرجوا منهم اثني عشر .. تسعةً من الخزرج وثلاثة من الأوس !

قال للنقباء:

« أنتم على قومكم بما فيهم كُفَلاء .. ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيلٌ على قومي؟

قالوا: نعم!
وكان الشيطان يستـرِقُ السمع ..

فلما بايع البَراء بن معرور ..

ثم بايع بعدُ القوم ..

صرخ من رأس العقبة بأعلى صوت: يا أهل الجباجب (المنازل) .. هل لكم في مُذَمَّم والصُّبَّاء معه: اجتمعوا على حربكم؟

- «استمِع أيْ عَدوَّ الله! أما والله لأفرغنّ لك

ثم قال رسول الله:

«ارفضّوا إلى رحالكم!

فارفضوا يتسللون .. تسلل القط .. مستخفين ..

خمسة وسبعون .. ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان ..

حتى رجعوا إلى مضاجعهم .. فناموا عليها حتى أصبحوا ! لم يشعر بما فعلوا قومهم من المشركين ..

واستمع مشركو قريش نداء الشيطان: يا أهل الجباجب .. اجتَمَعوا على حربكم!

ففدت جلّتهم على القوم حتى جاؤوهم في منازلهم:

«يا معشر الخزرج!

« إنّا قد بَلَغَنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهُرنا وتبايعونه على حربنا.

« وإنه - والله – ما من حيّ من العرب، أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم! »

فانطلق مَنْ هناك من مشركي الخزرج يحلفون .. بالله ..

«ما كان من هذا شيء، وما علمناه!

(وقد صدقوا .. لم يعلموه!

والخمسة والسبعون ينظر بعضهم إلى بعض ...

أما الليل والرمال فكان لها شأنٌ آخر ..

الليل انبثق فجره!

أما الرمال التي شهدت مولد الحضارة – ليلةَ العقبة – فقد أصبحت شيئاً آخر ...

صار لها كيان ..

وإذا كل حبَّةٍ من الرمل .. كل ذرّة ..وُجُود!

* * *

ميلاد حضارة

اللَّبِنة الأولى في بناء هذه الحضارة لم يَضَعها بشر !

وَضَعها الله رب البشر من فوق السماوات ..

﴿هو الذي أيده بنصر وبالمؤمنين .. وألّف بين قلوبهم .. لو أنفقت ما في الأرض .. جميعاً .. ما ألّفت بين قلوبهم .. ولكن الله ألّف بينهم﴾

وقال الله كمن ! .. فكان !

وزالت السدود التي تفصل بين قل البشر وقلب البشر .. وبين جسد الإنسان وجسد الإنسان !

فكان المؤمنون في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر !

وكانوا كما قال الله في الإنجيل !

.. كَزَرْع .. أخرج شَطْأَه .. فآزَرَه ..

فاستغلظ ..

فاستوى على سوقه ..

يُعجب الزرّاع!

وهكذا نمت الحضارة رُوَيداً ..

زرع يُخرج شطأه .. أغصاناً من جانبٍ .. وأغصاناً صغاراً .. تحبّه .. وتحنّ إليه .. وتميل عليه .. تؤازره ..

فينمو ويشتد .. وتنمو وتشتد ..
يسغلظ .. ثم يستوي على سوقه ..

فلا أعجب ولا أجمل ولا أبهل!

... وبلغ رسول الله ﷺ المدينة .. مهاجراً من مكة أحب أرض الله إليه ..

وأخذ أهلوها يأتونه رهطاً رهطاً وقوماً قوماً ..

وهو على ناقته تسعى به ..

«يا رسول الله! هلم إلينا ..
إلى العدد والعدّة والمنعة .. »

ويأتيهم جواب واحد:

«خلّوا سبيلها .. فإنّها مأمورة» .. يتحدث عن ناقته

فتنطلق ..

حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار بركت أمام الباب وهو يومئذٍ مِرْبد لغلامين يتيمين من بني النجار وهما في حِجْر معاذ بن عفراء ..

ثم وثَبَتْ ..

فسارت غير بعيد .. ورسول الل واضعٌ لها زمامها لا يثنيها به ..

ثم التفتت إلى خلفها .. فرجعت إلى مبرَكها أول مرة فبركت فيه ..

ثم تحَلْحَلَت ..

ورَزَمَتْ ...

ووضعت جرانها ...

فنزل عنها رسول الله .. نزل على أبي أيوب الأنصاري وسأل عن المربد: لمن هو ؟

قال مُعاذ بن عفراء: هو – يا رسول الله – لسَهْل وسُهَيلٍ ابنَيْ عَمْرو، وهما يتيمان لي، وسأرضيهما منه، فاتخذه مسجداً !

*

فأمر به رسول الله أن يُبنى مسجداً !

*

وكان مشهد عظيم ..

آتت زرعة الله أُكُلها .. فإذا البادرة الأولى من بوادر هذه الحضارة .. حضارتنا ..

عَمِل في البناء رسول الله ..

وعَمِل المهاجرون والأنصار ..

ودَأَبوا فيه ..

يرتجزون وهم يبنونه:

« لا عَيْش إلا عيش الآخرة .. اللهم ارحم الأنصار والمهاجره ..

فيقول رسول الله:

« لا عَيْش إلا عيش الآخرة .. اللهم ارحم المهاجرين والأنصار ..

وكانت الظاهرةَ الأولى من ظواهر الحضارة:

العمل المشترك .. الطويل .. عشرة أشهر أو تزيد ..

وتمّ بناء المسجد !

بناء المسجد قلت ؟ بل بناء الأمة .. بناء الحضارة ..

شدّها الله بالألفة والمحبة والأخوة ..
وأثبتت هي ذلك بالعمل المشترك ..

ودأب رسول الله من بعد – كما كان من قبل – يزرع فيها الثقافة الواحدة .. ويرعى.

« أما بعد أيها الناس !

فقدِّموا لأنفسكم، تُعْلَمُنَّ – والله – ليُصعَقَنَّ أحدكم، ثم ليَدَعَنَّ غَنَمه ليس لها راعٍ ! ثم لَيَقولنّ له ربه – وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه -:

ألم يأتك رسولي فبلّغك ؟ وآتيتك مالاً ؟ وأفضلت عليك ؟ .. فما قدمت لنفسك ؟

فَلَينظُرَنّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً !

ثم لينظرن قُدّامه ولا يرى غير جهنّم ...

فمن استطاع أن يَقِيَ وجهه من النار ولو بشقٍّ من تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيّبة! فإنّ بها تجزي الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف .. والسلام عليكم وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته ..

تلك كانت أول خطبة خطبها رسول الله!

ثم تتابعت خطبه تزرع في الناس الثقافة الواحدة .. وترعى!

... «إن الحمد لله أحمده واستعينه ..

نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ..

من يهده الله فلا مضلّ له! ومن يُضلِّل فلا هادي له!

وأشهد أَنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له!

إنّ أحسن الحديث كتاب الله تبارك وتعالى .. قد أفلح من زيَّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس .. إنّه أحسن الحديث وأَبْلَغُه!

أَحِبّوا ما أحبّ الله!

أحبّوا الله من كل قلوبكم!

ولا تملّوا كلام الله وذكره .. ولا تَقْسُ عنه قلوبكم .. فإنه من كل ما يخلق الله يُختار ويُصطفى: قد سمّاه الله خِيرتَه من الأعمال، ومصطفاه من العباد، والصالحُ من الحديث، ومن كل م أوتي الناس من الحلال والحرام!

فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً !

واتقوه حقّ تُقَاته !

واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم !

وتحابُّوا بروح الله بينكم !

إنّ الله يغضب أن يُنكَثَ عهده !

والسلام عليكم .. »

* * *

ثم كانت خطبة أخرى في بناء الحضارة ..

أول وثيقة دستورية كتبها رسول الله !

بعضُ ما جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم
هذا كتابٌ من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تَبِعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

- إنّهم أمّة واحدة من دون الناس !
- وكل طائفة تَفْدي ..... بالمعروف والقسط بين المؤمنين ...
- وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً (مثقلاً من الدَين والعيال) بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل ...

- وإن المؤمنين المتّقين على من بَغَى منهم أو ابتغى وسيعة ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان وَلَد أحدهم!
  - ولا يقتل مؤمنٌ مؤمناً فهو كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن ...
  - وإن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس ..
  - وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرّده إلى الله وإلى محمد!
- وإنّ يهود بني عوف أمةٌ مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، أموالهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع (يهلك) إلا نفسه وأهل بيته ...
- وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم .. وإن بينهم النّصْر على من حارب أهل هذه الصحيفة!
  - وإن بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم!
  - وإن النصر للمظلوم!
  - وإن الجار كالنفس غير مُضَارٍّ ولا آثم ..
  - وإنه من خرج آمن ..ومن قَعَد آمنٌ بالمدينة، إلا من ظلم وأثم ..
  - وإن الله جارٌ لمن برّ واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ. »

* * *

كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك كله ..

يرسي دعائم حضارة .. أعظم حضارة عرفها الكون وسيعرف!

ويضع أساس دولة .. أعظم دولة عرفها الكون وسيعرف!

ويرعى زرع ثقافة .. أعظم ثقافة عرفها الكون وسيعرف!

وكانت الدنيا ..

الدنيا كلها .. نائمة!

تغط في سبات عميق .. عميق ..

فلم يوقظها – بعد عيسى بن مريم .. عبد الله وكلمة روحه .. – مثلُ الأذان:

الله أكبر الله أكبر

أشهد أنْ لا إله إلا الله

أشهد أنّ محمداً رسول الله ..

حيّ على الصلاة ..

حيّ على الفلاح ..

الله أكبر الله أكبر ..

لا إله إلا الله ..

نادى بها بلال على ظهر المسجد ..

أما الدنيا فهبّت من رقادها كأن لم تنم ..

ولم تنم!

* * *

باقـــة مُثُل

نحن في الجعرانة .. حيث يأتي الناس اليوم من مكة .. يعتمرون ..

ورسول الله صلى الله عليه قد نزلها ومعه من هوازن فيء كثير ..

وقد اتّبعه الناس يقولون: يل رسول الله! اقسم علينا فَيْئَنا من الإبل والغنم ..

حتى ألجئوه إلى شجرة فاختطفت عنه رداءه!

ردّوا عليّ ردائي أيها الناس .. يقول هذا الكلام رسول الله

فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نَعَماً لقسمته عليكم .. ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذوباً .. »

وارتاعت الأسماع ..

وأنصت حتّى الشجر، يصغى إلى تعاليم الرسول العظيم ..

وقام رسول الله إلى جنب بعير ..

فأخذ وَبَرة من أسنانه .. بين اصبعيه ..

ثم رفعها

« أيها الناس! والله ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة .. إلا الخُمُس .. والخمس مردود عليكم!

فأدوا الخياط والمخيط (الخيط والإبرة) فإن الغلول يكون على أهله عاراً وشناراً يوم القيامة!.. »

ورددت أوتار الضمائر هذا النداء العظيم ..

كان له صدى .. دويّ .. رهيب ..

القلوب التي صنعها محمد رسول الله لم يصنعها من بقايا فُتَات .. لم يَصُغها من حطام دنيا .. ولا الضمائر ..

من التقوى صاغها .. من الإحسان ..

وأعطى رسول الله المؤلفةَ قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس يتألفهم ويتألف بهم قومهم ..

أعطى كثيراً من تلك العطايا في قريش وفي قبائل العرب ..

ولم يكن في الأنصَار منها شيء ..

الأنصار الذين آووا ونصروا ..

يأخذ الناس كلهم إلا هم؟!..

ودخل سعد بن عبادة على رسول الله:

«يا رسول الله!

إن هذا الحيّ من الأنصار قد وَجَدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ..

قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار منها شيء ..

«فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال رسول الله:

«ما أنا إلا من قومي يا رسول الله ..

قال:

«فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة»

قال:فخرج سعد فجمع الأنصار في تلك الحظيرة ..

وأتاهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بم هو أهله ..

ثم ..

ثم بدأ حديث ليس في الدهر أوقع منه!

«يا معشر الأنصار!

ما قَالَةٌ بلغتني عنكم؟ وجِدَةٌ وجدتموها عليّ في أنفسكم؟

أَلَم آتكم ضُلاّلاً فهداكم الله؟

وعالةً فأغناكم الله؟

وأعداءً فألّف الله بين قلوبكم؟!

قالوا: بلى! الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل!

وكانت فترة صمت .. أقصر من نَفَس ..

وكان بعدها نداء عجيب!

«ألا تجيبونني يا معشر الأنصار؟

وكان جواب عجيب:

«بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ورسوله المنّ والفضل؟

وكان كلام يا لله ما أحلاه:

«أما والله لو شئتم لقلتم .. – فَلَصَدَقتم ولصُدِّقتم -! أتيتنا مكذَّباً فصدّقناك!

ومخذولاً فنصرناك!

وطريداً فآويناك!

وعائلاً فآسيناك!

أَوَجَدتم – يا معشر الأنصار – في أنفسكم في لَعَاعة من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا وَوَكَلتم إلى إسلامكم ..

ألا ترضون – يا معشر الأنصار – أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟!

فوالذي نفس محمّد بيده ..

لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار!

ولو سَلَك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعب الأنصار ..

اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار!»

والقوم يبكون حتى أخضلوا لحاهم ويقولون:

«رضينا برسول الله قسماً وحظاً ..

* * *

ثم خرج رسول الله من الجعرانة معتمراً

فلما فرغ من عمرته انصرف راجعاً إلى المدينة واستخلف عتّاب بن أُسيد على مكة، وخلّف معه مُعاذ بن جبل يفقِّه الناس في الدين ويعلّمهم القرآن:

قال زيد بن أسلم:

لما استعمل النبي عتّاب بن أُسيد على مكة رزقه كل يوم درهماً!

فقام فخطب الناس:

«أيها الناس!

أجاع الله كبد من جاع على درهم! فقد رزقني رسول الله درهماً كل يوم فليست بي حاجة إلى أحد!

درهم واحد لكل يوم؟!

الله الله يا والي مكة!

* * *